

التغيرات الاجتماعية للأسرة الجزائرية الحديثة

الدكتورة: لويزة سي محمد

قسم علم الاجتماع جامعة البويرة

المخصص باللغة العربية

الأسرة الجزائرية هي مؤسسة من مؤسسات التنشئة الاجتماعية، وهي تعمل على نقل ثقافة المجتمع من جيل إلى آخر، وقد تم دراستها من مختلف الجوانب، فقد شهدت عدة تغيرات، على مستوى البنية والوظيفة و هذا تماشيا مع التغيرات التي تحدث في المجتمع، ولهذا أردنا أن نسلط الضوء على أهم هذه التغيرات، هل حافظت أم فقدت دورها الأساسي في تنشئة الأفراد في مجتمعنا الحديث؟

المخصص باللغة الأجنبية

La famille Algérienne est une institution liée à la socialisation. Par ailleurs, cette institution œuvre à transférer la culture de la société de génération en génération. Et a été étudiée sous divers aspects, comme elle est passée par plusieurs changements tant au niveau de la structure qu'au niveau du fonctionnement, et ceci en concordance avec les changements qui se produisent au sein de la société. Cette caractéristique nous a poussés à mettre en exergue le plus important de ces changements, et de savoir si la famille a perdu son rôle principal dans l'éducation des individus?

مقدمة

يفترض الأنثروبولوجيون أن المجتمع الإنساني بدأ في شكل علاقة بين الرجل والمرأة، وأن هذه العلاقة أدت إلى إنجاب أطفال، وإلى تكاثر متواتر إلى الوجود الاجتماعي، فالعلاقة الأولى بين الإنسان والإنسان قد بدأت في إطار وحدة اجتماعية صغيرة أطلق عليها الباحثون اسم الأسرة أحيانا والعائلة أحيانا أخرى، ويحاول الأنثروبولوجيون دراسة الأشكال المعقدة والبسيطة للحياة الاجتماعية، وهم يسعون من وراء ذلك كله إلى إدراك قوانين الحياة الاجتماعية والإنسانية بالعودة إلى ينابيعها الأولى وتقصي أصولها البعيدة. ولا يخرج علماء الاجتماع عن هذه القاعدة

عندما يريدون معرفة قانون الحياة الاجتماعية حيث يكرسون جهودهم لدراسة الإنسان في الحياة الاجتماعية من أجل إدراك شبكة العلاقات القائمة في المجتمع. تشكل الأسرة النواة الأولى، والأساسية للبناء الاجتماعي ككل، فهي منطلق الحياة وغايتها، وبالتالي فإن المعرفة الشمولية لطبيعة الاجتماعية مرهونة بالمعرفة العلمية الواقعية للنظام الأسري القائم في إطارها، فالمجتمع كما يراه GURWICH مركب في أبسط حالاته من جماعات صغيرة مكونة له ومندرجة فيه تحمل سماته، فيما يتعلق بطبيعتها وحركة تفاعلها، كما تتكون هذه الجماعات الصغيرة من أفراد تربطهم علاقات محددة تعكس إلى حد بعيد شكل العلاقات التي تقوم في إطار المجتمع الكبير.

1/ صعوبة الدراسة العلمية للأسرة:

إن دراسة الأسرة مسألة صعبة للغاية، لكنها تثير كثيرا اهتمام الباحثين، وربما ذلك راجع إلى الاتصال الوثيق بها، وما يحيط بها من نظم وعادات وتقاليد وأعراف...، بالإضافة إلى مختلف الجوانب الروحية والعاطفية.

لقد اهتم علماء الاجتماع بدراسة الأسرة- خصوصا في النصف الثاني من القرن العشرين- نظرا للارتباط الوطيد بينها وبين الظواهر الاجتماعية الأخرى كانحراف الأحداث وانتشار الجرائم والتسرب المدرسي وصراع الأجيال والانتحار... وكل ما له علاقة بالتنشئة الاجتماعية للفرد، فالأسرة تلعب دورا في " تكوين شخصية الأبناء وتنشئتهم الاجتماعية وفقا للنظام الثقافي والاجتماعي العام في المجتمع".¹

كثيرا ما نميل إلى إبداء آراءنا حول هذه المؤسسة الحيوية انطلاقا من معاشتنا لجونا الأسري بدفته أو حرمانه... دون اعتبار لأي نظرية اجتماعية، هذا ما يعكس في الواقع عدم وجود اصطلاح واضح ومضبوط للأسرة يتفق عليه علماء الاجتماع لتعدد الأنماط الأسرية وحساسية الموضوع، وهناك من الباحثين من يرون أنه يجب عند دراسة الأسرة اللجوء والاستعانة بمجموعة من العلوم كعلم الأجنة والتشريح والقانون وعلوم النفس وحتى الاقتصاد... حتى تضفي على دراستها نوعا من الإيضاح²،

1. مسعود ططفاف، المشكلات الاجتماعية الناجمة عن الهجرة الخارجية، رسالة مقدمة لدائرة علم الاجتماع لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في علم الاجتماع، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، 1979-1980، ص 81.

² سناء الخولي، الأسرة و الحياة العائلية، القاهرة، دار المعرفة، 1978، ص 81.

ومع ذلك تبقى الأسرة حقيقة، كما قدرها علماء الاجتماع وكما أدتها الوثائق التاريخية، علما أنها تقوم على مبدأ " الروابط العاطفية كالحنان المتبادل بين الزوجين وحنو الآباء على الأبناء والبر بالوالدين"¹، إن الأسرة هي- بنويا- الخلية الأولى، وهي مجال خصب للدراسات الاجتماعية المعقدة.

هذا، وتعد الأسرة أيضا نظاما عالميا، ما دامت من أهم مقومات الوجود الإنساني، وثمة علاقة وطيدة بين الأسرة والزواج، فالزواج ظاهرة اجتماعية وسلوك اجتماعي خاضع لمجموعة من الشعائر والطقوس والنظم والاحتفالات، أما التزاوج فهو ظاهرة فيزيولوجية بحتة، ولا تتحول هذه العملية الأخيرة إلى زواج إلا بخضوعها لمجموعة من القواعد التي عن طريقها تتكون " الأسرة"، ومن ثم يتحول التزاوج إلى زواج تختلف المجتمعات الإنسانية في كفياته من اختيار القرين، وعدد الأزواج، والسن المحددة للزواج، ومراسيمه...

إن نظام الأسرة نظام اجتماعي يقره العقل الجمعي وتصلح عليه الجماعات، وليس نظاما طبيعيا تقره دوافع و مقتضيات الغريزة،² فهي الوسط الاجتماعي الذي يشبع الدوافع الطبيعية للفرد، ويحقق الإشباع العاطفي والجنسي، كعاطفة الأبوة والأمومة، وهذا لتقليص الفجوة بين أسلوب الحياة داخل الأسرة وبين ما هو موجود في إطار المجتمع الكبير، مع العلم أن وجود الأسرة رهين بوجود نظام اجتماعي يحدّد الصلة القانونية والأخلاقية و يضعها تحت رقابة المجتمع.³ وتبقى الأسرة النظام الذي بفضله يكتسب الطفل إنسانيته و شخصيته، و فيها تحدد الطرق المثلى لتربية الطفل و ترويضه* ليصبح كائنا اجتماعيا مشبعا بثقافة مجتمعه و عصره، و من ينكر أن الأسرة هي الجماعة الأولى التي يتعامل معا الطفل ويعيش فيها السنوات الأولى من حياته، هذه السنوات التي تأكد علماء النفس و التربية، أن لها التأثير الحاسم في تشكيل شخصية الطفل و طبعه اجتماعيا بشكل يبقى معه طول الحياة، و في كل النواحي الشخصية، سواء الجسمية أو العقلية أو الوجدانية أو الخلقية أو النفسية.

¹ العربي بختي، التربية العائلية في الإسلام، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1991، ص.

² علي عبد الواحد واتي، الأسرة و المجتمع، مصر، دار النهضة للطباعة والنشر، ط7، 1977، ص.ص156-157.

³ زيدان عبد الباقي، الأسرة و الطفولة، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1980، ص48.

*. ترويض الطفل: مصطلح استعمله دور كايم للدلالة على التنشئة الاجتماعية

اتفق علماء الاجتماع على أن أول نوع من أنواع الأسر التي ظهرت على مسرح الحياة الاجتماعية، كان ذا طبيعة عائلية دينية، وأطلق على هذا النوع من الجماعات اسم العشيرة¹ CLANG، والعشيرة جماعة اجتماعية- دينية يحكمها النظام الطوطمي* TOTEMISME.

2/1 الأشكال الأساسية للأسرة:

تختلف التصنيفات عموما باختلاف المعايير والمقاييس أو الخلفيات المأخوذة بعين الاعتبار من طرف هذا الباحث أو ذاك، وقد تضمنت مؤسسة الأسرة عدة تصنيفات تمخضت عنها العديد من الأشكال، ونظرا لطبيعة موضوع ووجهة هذا البحث فإننا سوف نعرض التصنيف التالي:

2/1- الأسرة الممتدة:

يعرفها د. مصطفى بوتفنوش أنها تتألف من أسرتين نوويتين أو أكثر، ترتبط من خلال امتداد علاقة الابن بالأب، وهي على العموم تتكون من ثلاثة أجيال فأكثر، يعيش معظمهم حياة اقتصادية مشتركة تحت رئاسة رئيس العائلة، وهذا النوع من الأسر يقوى ويضعف كنظام اجتماعي تبعا لعدة عوامل، كالزواج والطلاق والمجال السكني... ويغلب وجودها في المناطق الريفية على الخصوص، وهذه الأسرة شاملة وكبيرة، وتتولى تصريف أموره بذاتها، وقد تسمى منطقة بأكملها باسم عائلة" السي فلان"، كما هو الحال في بعض مناطق القبائل في المجتمع الجزائري.

2/2- الأسرة النووية

يتكون هذا الشكل من الأسر من الزوج والزوجة وأبنائهما غير البالغين، وتعد استهلاكية أكثر منها وحدة إنتاجية، وتتصف حاليا بضعف الروابط القرابية، وقد لقي هذا الشكل من الأسر اهتمام علماء الاجتماع، وعلى رأسهم تالكوت بارسونز (Talcott Parsons) الذي أجرى عدة أبحاث حول الأسرة الزوجية- الأمريكية، وقد بدأ هذا الشكل من الأسرة يظهر حديثا في المجتمع الجزائري، وخصوصا في المدن، نظرا للتحويل البنائي للأسرة الجزائرية، وفيما يلي أهم خصائصها:

¹. السيد محمود بدوي، المجتمع والمشكلات الاجتماعية، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ، 1988، ص 186.

الطوطم شعار أو كائن مقدس تعتقد جماعة العشيرة انها انحدرت منه.*

- تتكون على أساس الاختيار الحر في الزواج، فهو زواج بين الأفراد أكثر منه ارتباطاً بين الأسر.

- الاستقلال في السكن والمعيشة، وما ينجر عنه من استقلال في حقوق الملكية والأفكار، إذ كثيراً ما تعتمد هذه الأسرة في تماسكها على الجذب الجنسي بين الجنسيين بين الزوجين وعلى الصداقة بين الآباء والأبناء.¹

- يتمتع أفرادها بدرجة كبيرة من الفردية والتحرر الواضح من الضبط الأسري، وتعلو مصلحة الفرد على مصلحة الأسرة.

وتجدر الإشارة إلى " أن هذا التصنيف للأسر هو تصنيف نظري فقط، لأن غالبية الدراسات أثبتت أنه لا توجد أسرة ممتدة خالصة ولا أسرة نواتية خالصة"².

3/ الوظائف العامة للأسرة:

تعتبر الأسرة نظاماً ووحدة اجتماعية أساسية لرعاية الفرد وتكوين شخصيته، ففي ذلك المجتمع الصغير المتكامل و هيئة أساسية تقوم بإنجاز العديد من الوظائف، يتعلم الطفل بفضلها مختلف الخبرات والمهارات وطرق التفكير والسلوك، وقد اتفق علماء الاجتماع على أن الأسرة - بغض النظر عن شكلها وتركيبها - تقوم بعدة وظائف أساسية لا يمكن أن تقوم بها مؤسسات أخرى، ولعل أهم هذه الوظائف ما يلي:

1/3- الوظيفة البيولوجية:

تعد من بين الوظائف المهمة للأسرة، وهي تتمثل في الإنجاب والتناسل وحفظ النوع من الانقراض والفناء عن طريق إرضاء التبرعات بصورة يقرها المجتمع، فالأسرة هي التي تحفظ المجتمع من الانقراض والفناء، فاستمرار العضوية الاجتماعية مرهون باستمرار بقاء الأسرة³، وعلى ذلك تعتبر الأسرة هي المسؤولة عن إنجاب الأطفال، وما يتعلق بذلك من رعاية صحية وجسمية سليمة.... بما يسهم في النمو السليم للطفل بيولوجياً، وغيرها من المطالب المادية الأخرى للمحافظة على

¹.محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، الاسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979، ص 179.

². مسعودة كسال، مشكلة الطلاق في المجتمع الجزائري، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1986، ص 24.

³. راجح تري، أصول التربية والتعليم، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1990، ص 171.

حياته وحمايته من الأخطار الخارجية، حتى يمكن إنجاب أطفال تتوفر فيهم كافة الشروط الصحية اللازمة، ومكتملي الصحة الجسمية والعقلية.¹

2/3- الوظيفة التربوية:

من البديهي أن للأسرة دورها الهام الذي لا ينكر في تنشئة سوية تتفق و معايير وقيم المجتمع الذي ينتمي إليه، " كما البستان يحتاج إلى بستاني يتعهده بالحرث والزرع، كذلك الطفل يحتاج إلى مربّ يعتني به في البيت ويحميه من كل المؤثرات الضارة ويصونه من البيئة المفسدة..."²، من ذلك نفهم أن الأسرة هي ذلك الوعاء الاجتماعي الذي تنمو فيه بذور الشخصية الإنسانية، لاحتوائها على تركيب من التفاعلات النفسية والاجتماعية المعقدة، وتعد مرحلة الطفولة من أخطر المراحل في نمو الفرد لما لها من أهمية قصوى في تكوين شخصيته عن طريق نقل المهارات والمعتقدات وكذا أنماط السلوك المختلفة، ذلك أن الطفل خلال سنوات عمره الأولى يكون أكثر عرضة للتشكيل، وأكثر قابلية للتأقلم مع خصائص المحيط سواء داخل الأسرة أو خارجها، وعليه كانت التربية من بين الأمور الهامة التي يولها علماء النفس اهتماما بالغاً لأنها " تعني بالسلوك الإنساني وتنميته و تطويره وتغييره"³، وفي البيت تتاح البيئة التنشئية للطفل، حيث يكون نموه سليماً كما تسهّل له الأسرة عملية الاندماج الاجتماعي.

3/3- الوظيفة الاقتصادية:

تتمثل في التعاون الاقتصادي داخل الأسرة، وإن الاختلاف الفيزيولوجية بين الرجل والمرأة قد جعل الأسرة وحدة متكاملة محددة وفقاً لنوع العمل، فأعمال الرجل خارج البيت تتكامل اقتصادياً مع أعمال المرأة داخله، ممّا يجعل الأسرة وحدة منتجة متعاونة، فإذا كان الاتصال الجنسي يؤدي إلى تقوية العلاقات الاجتماعية بين الزوجين، فإن التعاون الاقتصادي يؤدي إلى تقوية العلاقات

¹ خيري خليل الجميل، الاتجاهات المعاصرة في دراسة الأسرة و الطفولة، الاسكندرية، المكتب المجتمعي الحديث، 1993، ص 27.

² محمد عطية الأبراشي، الطفولة صانعة المستقبل، القاهرة، مكتبة الأنجلو- مصرية، 1963، ص 13.

³ محمد لبيب النجيجي، الأسس الاجتماعية للتربية، القاهرة، مكتبة الانجلو- مصرية، ط 1971، 4، ص 17.

الاجتماعية لأفراد الأسرة ككل، لأنه يؤثر على سلوكيات أفرادها واتجاهاتهم وتعاملهم مع الآخرين...، وكل ما له علاقة بالعتاية، والرعاية الصحية، والتعليمية للطفل.

4/3- الوظيفة النفسية:

تنحصر هذه الوظيفة في التكامل العاطفي والانفعالي لأعضائها من خلال ما توفره من عطف وحنان وأمن واستقرار نفسي، مع توفير الحاجة الدائمة إلى الود والحنان مع الأم والأب، فنجاح الأسرة في تهيئة الجو النفسي المناسب للطفل يتوقف على مدى ما توفره من تجاوب عاطفي وعلاقات طيبة بين الزوجين و جو مملوء بالثقة و الوفاء...، فعندما يقول شخص ما أن المكان يجعله شعر بأنه بين أهله، ما هو إلا دليل قاطع على أهمية الأسرة في توفير الجو المملوء بالطمأنينة والأمن.

3/5- الوظيفة الاجتماعية:

الأسرة هي المؤسسة التي تقوم بعملية التنشئة الاجتماعية أو التطبيع الاجتماعي للطفل، حيث يتعرف الطفل على الحقوق والواجبات والقوانين والعادات والأعراف والتقاليد..لأن الطفل ليس ملكا لوالديه فحس وإنما هو عضو في المجتمع الأكبر الذي ينتهي إليه جميعهم و يعيشون فيه، ويتعلم الطفل في الأسرة أساليب المعاملة والتآلف والصدقات والاعتراف بحقوق الغير واللغة وتراث المجتمع وثقافته، الأمر الذي يجعله ذو مشاركة اجتماعية فعالة وإيجابية، وكل ذلك يتحقق من محاولة الآباء تشكيل الطفل بحسب ما يرغبون وما ترغبه ثقافة المجتمع، بمعنى " تعليم الامتثال لمطالب المجتمع والاندماج في ثقافته، وإتباع تقاليد، والخضوع لالتزاماته ومنجزات الآخرين"¹ ولذلك تعتبر مرحلة الرضاعة و الطفولة المبكرة لدى الطفل ذات أهمية بالغة في تشكيل شخصيته، لأنه يكون خاضعا لسلطان جماعة الأسرة وسهل التأثير، قليل الخبرة، ضعيف الإرادة، منعدم الحيلة، في حاجة إلى أسرة تعوله و إلى جماعة تعلمه و تربيته، مع العلم أن لكل أسرة قالب خاص من الاتجاهات والقيم يتمتع بها أفرادها دون سواهم، و يمكن أن نحكم على أسرة ما بمستوى اجتماعي معين من قاموس الأطفال اللغوي أو حتى من طريقة ترتيب الأثاث...، و من الواضح أن الأسرة التي يكون مستواها الاجتماعي متدنيا فقيرة في التراث الاجتماعي المميز لها.

¹. سيد رمضان، رعاية الأسرة، الاسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، بدون تاريخ، ص 18.

6/3- الوظيفة الثقافية:

وتتمثل في كيفية تنشئة الطفل ثقافيا، إذ أن الأسرة يقع الدور الهام في تحقيق التطبيع الثقافي السليم، الذي يتفق والنمط العام لثقافة المجتمع، من خلال تعلم الطفل لغة قومه واكتساب مختلف المفردات الثقافية سواء عن طريق اللغة أو بوسائل أخرى متنوعة تبعا لطبيعة التفاعل الأسري ذي الدور الكبير في نقل الثقافة للطفل، وكذا في دمج شخصيته، ما دام هذا الطفل قابلا لاستيعاب ثقافة مجتمعه.¹

7/3- الوظيفة الأخلاقية:

ترتبط هذه الوظيفة بدور الأسرة في تنمية العادات والاتجاهات والقيم السلوكية المرغوب فيها، وكذا الأخلاق الحسنة وفنون التعامل مع الغير من احترام وتقدير أيضا، ويتعلم داخل أسرته احترام ممتلكات الغير وحقوقهم، وعادات النظافة والأناقة وآداب الطعام والمشى والنوم... كل ما له علاقة بالنوم والجمال والموسيقى والفنون والآداب العلوم وحب الغير والخير.

8/3- الوظيفة الدينية:

يقول علماء الاجتماع أن الدين ظاهرة اجتماعية في جميع المجتمعات البدائية والراقية على حد سواء، والأسرة هي التي تقوم بوضع الأسس الأولى للعاطفة والفكرة الدينية عند الطفل، وتطبعه بطابع ديني معين، وذلك بتعليم أفرادها الشرائع الدينية كالصلاة وقراءة الكتب الدينية وكيفية ممارسة الطقوس الشعائر والتعبدية... الخ.

4/ تطور وظائف الأسرة:

لقد قطعت الأسرة منذ بداية الإنسانية إلى العصر الحديث مراحل متعددة من التطور، وشهدت أحداثا مختلفة باختلاف الأزمنة والشعوب وذلك في أمور كثيرة، أهمها التطور في بنيتها ووظائفها، ومع مطلع القرن الثامن عشر أخذ مجال الحياة الاجتماعية يتسم- خصوصا بعد الثورة الصناعية والتطور التكنولوجي السريع- بنمو الخطابات المنادية بقيم الاستقلالية والحرية والمساواة بسن الجنسين.

¹ ذكاء الحر، الطفل العربي و ثقافة المجتمع، بيروت، دار الحدائث للطباعة والنشر، ط1، 1984.

فقد تغير أسلوب الاختيار للزواج وتعززت استقلالية الزوجين ماديا و مكانيا عن الأسرة الأصلية، وقد ارتفعت بشكل مذهل نسب النساء العاملات، وتزايدت معدلات الطلاق، واستفحلت ظاهرة التفكك الأسري¹. إن الأسرة هي ذلك النمط الثقافي الشامل لطرق المعيشة والتفكير التي تميزها، بما يولد نوعا من التراث الاجتماعي والنسيج الحضاري المعقد الذي يولد فيه الطفل وينشأ ضمنه من خلال عملية التطبيع من التراث الاجتماعي، وفي ظل التغير السريع- الذي يعتبر سمة هذا العصر- تغيرت الأنشطة الاقتصادية و النظام الاجتماعي و التركيبة السكانية وأساليب و أنماط السلوك والتفكير وأنساق القيم والاتجاهات والعلاقات، ومجمل السمات القافية الخاصة بالمجتمع... كل ذلك من شأنه أن يغير طبيعة دور الأسرة كوحدة تربية وناقلة للتراث الثقافي عبر الأجيال، نحو قصور دور الأب والأم في أداء الدور التربوي، و تغيير أساليب التنشئة الاجتماعية للطفل، فحداثة سن الزوجية وعدم مرورها بخبرات تنشئية عديدة هي أحد العوامل الأساسية في عدم قدرة الأسرة على أداء دورها التربوي في الوقت الراهن، أمام تحرر الآباء من القيود الأسرية وتجاوب الكبار (الأجداد)، مما يفقد الوالدين الخبرة الكافية في أساليب التنشئة الاجتماعية، حتى وإن كان أحدهما أو كلاهما ذو مستوى تعليمي عال، فتحرر شباب اليوم من القيود والأوامر والنواهي الأسرية والاستقلال بالسكن الخاص بعد الزواج أمام زيادة آمال و طموح الفرد في التحرر في جميع الجوانب، أضف إلى ذلك عدم التكافؤ بين الزوجين الذي يعد من أحد العوامل التي تؤثر على الأداء الفعال لدورهما التنشئوي، نظرا لعدم اتفاق الزوجين على الأنماط والأساليب التربوية والاتجاهات الوالدية* والمفردات الثقافية... التي يجب نقلها إلى الطفل، مما قد يؤدي إلى اضطرابات وتناقضات في نوعية القرارات التربوية التي يتخذها كل منهما. وهناك عامل آخر يتدخل في التأثير على قدرة الأسرة الحديثة على أداء وظيفة التنشئة الاجتماعية، وهو خروج الأم للعمل و ترك الأطفال لدور الحضانه الغير معدة ولا المؤهلة حقيقة لأداء مهمة التنشئة الاجتماعية على أكمل وجه، أضف إلى

1. *Andrée Michel, sociologie de la famille et du mariage*, France, presse universitaire, .1

2eme édition,1978,p136.

* يقصد بالاتجاه الوالدي، طريقة إدراك الآباء لدورهم الوالدي المؤثر على اتجاهاتهم كآباء وأمّهات.

ذلك عامل آخر لا يقل أهمية وهو المستوى التعليمي للأب والأم، الذي قد يكون أحد تلك العوامل التي تؤثر إلى حد بعيد في عملية التنشئة الاجتماعية، لأن المستوى التعليمي** "دال على الخبرات المكتسبة للوالدين من خلال المواقف التعليمية واليومية التي عايشوها أثناء فترة تعليمهم، والتي مازالوا يعيشونها أيضا في ضوء تلك الخبرات المكتسبة. يساعد التعليم الأبوان بصفة خاصة على تنمية مواهبهم وتهيئة سبل التفكير الموضوعي في مختلف مسائل التنشئة الاجتماعية، كما أن تلك الخبرات المتوفرة لدى الوالدين تصبح مرجعا يساعدهما على تنشئة الأبناء وتشكيل نسقهم القيمي.

تشير بعض الدراسات إلى التباين الواضح في المستوى التعليمي للوالدين، وكذلك التباين في المستوى التعليمي بين الآباء والأمهات من أسرة لأخرى، أو في داخل الأسرة الواحدة قد يعكس تباينا في تلك الخبرات والتجارب والأفكار والسلوكيات التي تنقل إلى الأطفال.

وبذلك فإن الأسرة الحديثة، نتيجة التباين في المستوى التعليمي بين الوالدين وخصوصا ذوي المستويات التعليمية المنخفضة، من شأنه أن يقلص فعالية دورها في تنمية القيم المرغوبة لدى الأبناء، ضف إلى ذلك قلة التفاعل اللفظي بين أفراد الأسرة الحديثة، التي لا تعطي فرصا للحوار الأسري والحنو الأبوي و النقل الثقافي، و لربما يتدخل عامل آخر، المتمثل في حجم الأسرة الذي يعدّ عاملا هاما مؤثرا على أداء الأب والأم لدورهما التنشئوي، فقد بينت الدراسات العلمية أن زيادة حجم الأسرة يعد عبئا على التربية خصوصا إذا ارتبط ذلك المفهوم ببعض القيم- السائدة مثلا في الأسر الجزائرية- من تباين مكانة الأبناء تبعا للجنس وتفصيل الذكور على الإناث، كما أنّ انشغال الآباء بالعمل، وعدم الاهتمام بمقتضيات التربية السليمة، ومتطلبات التنشئة الاجتماعية للأبناء يجعل الأمهات يطورن نظرة سلبية عن الدور التربوي للزوج اتجاه الأبناء، وقد يؤدي ذلك إلى تدخل أفراد الأسرة الكبيرة في غياب إبتهم بالتوجهات والأوامر حول تربية الأبناء متناسين بذلك الدور الجوهرى الأم في تنشئة أبنائها ومدهم بالحنان والأمن العاطفي، إذ تكون الأم غير راضية في بعض

** يقصد به نصيب الفرد من التعليم، أو درجة تحصيله الدراسي، او هو القدر التعليمي الذي وصل إليه أثناء الحياة الدراسية.

المواقف عن الأفكار والسلوكيات التي تنتقل إلى أبنائها خاصة إذا كانت ذات مستوى تعليمي عال مقارنة بأفراد الأسرة الكبيرة.

بالإضافة إلى هذه العوامل التي تؤثر على الأسرة اليوم في أداء عملية التنشئة الاجتماعية للطفل، هناك عوامل خارجية أخرى، نذكر منها:

- عدم وضوح الخط التربوي العام لتنشئة الأفراد مع غياب فلسفة تربية ناجعة.
- انخفاض المستوى الاقتصادي العام للدولة و انخفاض مستوى الفرد من الدخل القومي.

- انتشار الأمية بكل أبعادها.

- الهجرة نحو المدن و مناطق الجذب التكنولوجي بحثا عن الرزق.

- الفساد السياسي و انتشار قيم الانتهازية والمحسوبية و السلبية.

وبذلك فإن الأسرة بشكل عام، والأسرة الجزائرية بشكل خاص، تكاد تفقد وظائفها التي تقوم بها بغرض التنشئة الاجتماعية السليمة للأبناء، لعدم قدرتها على مواجهة أو مواكبة التغيرات المتسارعة السائدة في المجتمع في الوقت الحاضر، فالعوامل المتسارعة تؤدي على ظهور أنماط و أساليب جديدة من السلوكيات التربوية التي تتفق وتلك التغيرات المصاحبة للانفتاح على الثقافات العالمية و القومية، وإن التغيرات التي حدثت في البناء الداخلي الأسري قد أدت- حسب بعض الباحثين- إلى إضعاف كفاءة الأسرة بشكل كبير.

5/ أثر انسلاخ وظائف الأسرة على تربية الطفل:

إن الأسرة هي الوحدة الأساسية التي يتحقق فيها النمو المتكامل للطفل، و هي البيئة التي اصطلح عليها المجتمع، ونصت عليها الشرائع المتتلة لإشباع الغرائز الجنسية بصورة تتلائم مع كرامة الإنسان و منزلته الرفيعة عن غيره من المخلوقات، و هي المكان الطبيعي لإشباع الحاجة إلى الاجتماع و الألفة المشاركة الوجدانية بين الطفل وأبويه، التي تعتبر المصدر الأساسي لاكتساب شخصية متزنة، و هي أيضا المكان المثالي الذي يتلقن فيه الطفل اللغة و العادات و آداب السلوك و قواعد الدين.

ولما كانت مرحلة الطفولة الإنسانية طويلة كانت وظيفة الأسرة أساسية في إمداد الطفل بالوسائل المختلفة لنموه النفسي والاجتماعي والعقلي الكامل¹، لكن و نتيجة التغيير الاجتماعي السريع فلقد فقدت الأسرة الكثير من وظائفها، إذ كانت قائمة على تعريف الطفل ديانتته، وآلان تقوم به المؤسسات الخاصة، كما تعرضت علاقات الآباء مع الأبناء إلى التغيير، فترك الأب المنزل بعدما كان يمارس فيه الحرف اليدوية الالتحاق بالعمل في مكان آخر أدى إلى فقدان الأب وظيفته تدريبية للأبناء، وغالبا ما يصاحب هذا فقدان أيضا فقدان الأب سلطته التربوية¹، "إذ يمثل عجز الأسرة على أداء وظيفة التنشئة بشكل عام"

وعليه طرح فقدان الأسرة لوظائفها عدة شكوك حول استمرار الحياة الزوجية، وبالتالي التفكير في مصير الأسرة في حد ذاتها، لأن مشكلة فقدان الأسرة لوظائفها تعد مشكلة خطيرة إذا نظرنا إليها من وجهة نظر التغييرات الاجتماعية التي صاحبها الارتفاع الكبير لمعدلات الطلاق والانفصال...، وما ينجر عن ذلك من مساوئ وأضرار تلحق بالطفل على وجه أخص، و تغيير أساليب التربية الحديثة قد لا تتماشى و خبراتهم ومقتضيات الحياة اليومية، ولو أن العديد من علماء الاجتماع يرون أنه بفقدان الأسرة لوظائفها أصبحت غير قادرة على مواجهة متطلبات التنشئة الاجتماعية، وبالتالي أصبحت أكثر تخصصا في أداء ذلك، ولكن أغلب آراء هؤلاء تخمينية وبعيدة على تفسير واقع التربية الحديثة السائدة اليوم عبر العالم بشكل عام، وفي الأسرة الجزائرية بشكل خاص أو حتى أنماط الأساليب التنشئية المستعملة ومدى تطابقها وذهنية الوالدين.

6/ المراحل التطورية للأسرة الجزائرية:

ذكر الباحث الجزائري المتخصص في شؤون الأسرة الدكتور مصطفى بوتفنوش المراحل التي مرت بها الأسرة الجزائرية، وقال في هذا الصدد: " وقد أصبحت الأسرة الجزائرية تختلف كليا عما كانت عليه من قبل ثلاثين سنة، ففي سنة 1962 كان النمط السائد هو العائلات الكبيرة التي تضم من جيل إلى ثلاثة أجيال و تبعا لحدود إمكانيات المسكن، أما في سنة 1977، فإن نمط العائلة قد تغير

¹. محمد لبيب النجيجي، الأسس الاجتماعية للتربية، القاهرة، مكتبة الأنجلو- مصرية، ط 1971، 4.

إلى النطاق المحدود، وقد كان كل من التصنع السريع و حركة العمران وترشيد أجهزة الإنتاج وتطور الإنسان الجزائري.. أساس التحولات التي لحقت بالمجتمع والأسرة.²

1/6- الأسرة الجزائرية قبل الاستعمار:

كانت العائلة الجزائرية عائلة موسعة تعترف بنمط الأسرة الممتدة التقليدية، أين تعيش العديد من العائلات الزوجية، فكان بإمكاننا إيجاد 20 إلى 60 فرد أو أكثر يعيشون جماعيا تحت سقف واحد، أين نجد ثلاثة إلى أربعة أزواج أو حتى أكثر، ولكل منهم 8 أبناء إلى 10 ، وأطلق عليها – بوتفنوشت- اسم: الدار الكبيرة عند الحضر، والخيمة الكبرى عند البدو، وهي عائلة بطريقية، الأب فيها أو الجد هو القائد الروحي للجماعة العائلية، ينظم فيها أمور التسيير للتراث الاجتماعي، وله مرتبة خاصة من الاحترام والوقار...، فسلطة الأب أو الجد الأكبر هو جوهر قيام الكيان الأسري، وهذه السلطة الأبوية تزداد نفوذا وقوة في المجتمعات الريفية، فالأب الجزائري هو الحاكم في مصير أبنائه وبناته...، كما أن الطفل في هذه العائلة لا يعطى الحقوق الكاملة في التعليم واللعب...، سواء الآباء لذلك أو لكثرة عدد الأبناء فيتمتع بها البعض دون الآخر أو يمنعون جميعا منها.

وقد كان النسب في العائلة الجزائرية ذكوريا والانتماء أبوي، وانتماء البنت الجزائرية لأبيها، والميراث أيضا في خط أبوي للمحافظة على التراث العائلي من جيل إلى جيل، ويربى الطفل الجزائري على القيم الروحية الدينية المستنبطة من الدين الإسلامي، هذه التربية التي تميز الأسرة الجزائرية بالحفاظ على شرفها في تسيير الشؤون الاجتماعية، لاسيما تلك المتعلقة بأمور الزراعة التي تبنى على أسس تعاونية جماعية يشارك فيها الطفل منذ نعومة أظافره دون أن يكون له تحديد لحقوقه في ملكية الأرض أو غيرها من ممتلكات الأسرة.

لم يكن الآباء يولون أهمية لأحوال زوجاتهم...، فالمرأة الجزائرية لها مكانة أقل نظرا لمرتبها الاجتماعية الضعيفة مقارنة بمرتبة الأب أو الزوج أو الأخ الأكبر...، لكن

1.سناء الخولي، التغير الاجتماعي والتحديث. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ط 1993، ص314.

².BOUTEFNOUCHET MUSTAPHA.la famille algérienne, Evolution et caractéristiques récentes. Alger.sned.1980.OP.CIT.P 38.

كانت المسئولة الوحيدة عن تربية الأطفال ورعايتهم، متبعة في ذلك أساليب تقليدية من تجارب الحياة ووصايا الأمهات والجندات، وكانت الأم الجزائرية ذات " احترام في المجتمع القديم الذي جعلها قاعدة قوية للأسرة حيث كانت تشارك في كل كبيرة و صغيرة، إضافة إلى دورها الكبير في إنجاب الذكور الذي يثبت وجودها ويحسن من وضعيتها داخل الأسرة لأنه عند ولادة الذكر بداخل الأسرة الجزائرية يعني مزيدا من الاستبشار، أكثر منه عند ولادة البنت، فالأب يرى الوليد الذكر سندا مستقبليا له في الحياة وخليفة له على أرض العائلة كفيلا للأم وإخواته عند غيابه أو بعد موته، وهذا ما يفسر كون مرتبة البنت أدنى من مرتبة الابن في الحقوق والواجبات، فحتى حقها في التعليم كان مهضوما منذ طفولتها المبكرة... فالأمر الذي يجعلها تأخذ نوعا من التنشئة الاجتماعية القاسية والمفروضة في إطار من الشبكة الواسعة للعادات والتقاليد الجزائرية التي تحرم عليها أن تكون في مرتبة أعلى من الذكر، فالمرأة كانت تعتبر قاصرة، ومكانتها تكمن في البيت حيث أداء وظيفتها الطبيعية من الإنجاب الكمي (لانعدام وسائل منع الحمل) وإرضاع الأطفال بطرق تقليدية (انخفاض المستوى التعليمي أو انعدامه) ولهذا كانت معظم الأمهات يملن إلى أسلوب العقاب والتخويف، نظرا لتدني المستوى التعليمي من جهة ووحداية مسؤوليتها في تربية الطفل ورعايته داخل الأسرة لأن الأب يتكفل بغير ذلك.

2/6- الأسرة الجزائرية أثناء فترة الاستعمار:

لم تغير فترة الاستعمار الفرنسي الطويلة في حجم ولا شكل الأسرة الجزائرية، التي بقيت روحيا لكل أعضائها، لاسيما الأطفال، إذ بقي سائدا نموذج العائلة الكبيرة التي تضم العديد من الأزواج وأبنائهم، المتعاونين على تلبية احتياجاتهم المادية والنفسية والاجتماعية، بحسب ما تسمح به الظروف القاسية من كسب للعيش والحفاظ على سلامة أفرادها... خصوصا مع الهجمات التفتيشية الاستعمارية(العسكرية) التي كانت تشن بالخوف والهلع و الحزن... أمام انعدام أدنى شروط الحياة الأسرية من دقئ واستقرار، من جهة أخرى كان لا بد من الوالدين أن يشتركا في وحدة اجتماعية إنتاجية لأرض زراعية، التي أصبحت ملكا للمعمر الأجنبي بعدما كانت ملكا للجزائريين، وحرم العديد من الأطفال الجزائريين من الالتحاق بالمدارس في ظل تدهور الظروف المعيشية وانعدام وسائل العيش الصحي.....

لقد تفتن منظرو الآلة الاستعمارية الفرنسية مبكرا إلى أهمية القضاء على مؤسسة الأسرة لإحكام القبضة على المجتمع الجزائري، كما تفتن أيضا إلى مكانة المرأة وموقعها من مؤسسة الأسرة والنسق الاجتماعي ككل، لم تبق هذه الأفكار حبيسة دفاتر التقارير وإنما خرجت غلى حيز التطبيق، وانطلقت الإستراتيجية الاستعمارية النوعية على عدة مستويات وعدة جهات، ومنها تحرير المرأة وإقناعها تدريجيا بضرورة التنصل من النسق القيمي التقليدي الأصيل واعتناق النسق القيمي الغربي الحديث، وهو نفسه فحوى الخطاب الذي نادى به " ديغول" بعد استيلائه على الحكم وإسقاط الجمهورية الفرنسية الرابعة في 13 ماي 1961، فعقد " سوستيل" اجتماعات شعبية سيق الناس فيها بالقوة، وخطب داعيا إلى تحرير المرأة تحت ضغط السلاح أكرهت بعض النساء على خلع الحجاب وحرقه في حركة مسرحية- ولكن ذات دلالات رمزية حضارية عميقة- أمام الجماهير¹ غير أن محاولات المستعمر باءت بالفشل، فالمرأة الجزائرية مازالت تمثل العمود الفقري في بناء الصرح العظيم للأسرة الجزائرية والكيان التربوي المثالي لتكوين الطفل الجزائري الأصيل.

3/6- الأسرة الجزائرية بعد الاستقلال:

بعد نيل الاستقلال شهدت الأسرة الجزائرية تدريجيا عدة تغيرات، كالانفجار السكاني وتغيّر نمط المسكن و الهيكل الأسري و خروج المرأة إلى الحياة العملية...، وكنتيجة لهذه التغيرات ظهرت الأسرة الجزائرية الحديثة، التي استقلت اقتصاديا واجتماعيا عن الأسرة الأم، مما انعكس على أدائها للدور التنشوي للطفل، فالطفل الذي كان يشترك في تنشئة العديد من المربيات كالأُم و الجدة و العمّة...أصبح اليوم مسؤولة الأم فقط، هذه الأم التي تحوّلت من الأم المعزولة والمتحفظة أمام الرجل إلى تلك المشاركة في تحديد مصير أبنائها، والتخطيط لسعادتهم وبناء مستقبلهم.

فعملية التحديث الحضاري أدت غلى تغيير معايير التقييم الاجتماعي و نسق المراكز و الأدوار، مع اتساع معدلات النمو الحضاري، والتقدم الصناعي، وانتشار التعليم، وفسح المجال أمام المرأة الجزائرية للتفوق في ميادين التعليم و العمل، وبلوغ أعلى المستويات في كليهما، محققة بذلك استقلال ماديا سواء قبل الزواج أو

¹ المرأة الجزائرية- مجموعة نظرات عن الجزائر، مجلة صادرة عن وزارة الإعلام و الثقافة- بدون عدد و بدون تاريخ.

بعده، إن توسع ظاهرة خروج المرأة غلى التعليم والعمل قد أدى غلى ظهور الخدمات المتخصصة فى رعاية الأطفال، وإعداد الوجبات الغذائية الجاهزة وغيرها من الخدمات الاجتماعية الخاصة... وتصدر الإشارة إلى أن هذه الخدمات والمؤسسات الشبه أسرية التي برزت كاستجابة للطلب اجتماعي جديد، قد أصبحت فيما بعد عاملا مشجعا على تطور الظواهر التي أنتجت ذلك الطلب.

و لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل راحت المرأة الجزائرية تتمسك بحقوقها فى التعليم والعمل والاستقلال عن الرجل والمساواة معه، وشيئا فشيئا راح الرجل فى خضم هذه التغيرات والتحويلات المتسارعة والقوية يتقبل أدوارا جديدة لم يكن ليعترف بها من قبل، بل كان يعتبرها مساسا بكرامته ورجولته... فنجد الأب الجزائري اليوم يقوم بأدوار تربية كقيامه ببعض الأعمال المنزلية ورعاية الأطفال وإطعامهم ومشاورتهم فى أمورهم الخاصة متخليا بذلك عن نظرتة المتعصبة والتقليدية.

الخاتمة

لا تزال مؤسسة الأسرة تشكل موضوع بحث صعب جدا للدراسة العلمية، لذلك فإن التراكم المعرفي حولها لم يحسم فى تصنيفاتها العديدة، المتباينة بحسب المعايير والمقاييس المعتمدة، لكن يبدو أن ثنائية النمط الأسري الممتد والنمط الأسري النووي تمثل أكثر تصنيفاتها شهرة.

تؤدى الأسرة فى المجتمع وظائف متعددة، ومتكاملة، وهي تضمن فى مجموعها التنشئة الاجتماعية للأفراد، غير أن هذه الوظائف قد طرأت عليها تطورات وتحويلات بفعل الظروف المادية والثقافية المتغيرة للمجتمعات، بل قد توقفت الأسرة عن أداء العديد من الوظائف ما أدى إلى انعكاسات سلبية.

وقد عرفت الأسرة الجزائرية بدورها تغيرات، وسيرورات خاصة نظرا للظروف التاريخية التي مر بها المجتمع الجزائري، فقبل عهد الاستعمار الفرنسي كانت أسرة موسعة جدا وأبوية خالصة، وكانت الأم أو المرأة- رغم مكانتها الاجتماعية الضعيفة- أساس الأسرة وعمادها، فقد سعى المستعمر الفرنسي للقضاء على الأسرة من خلال إفساد المرأة بهدف إحكام قبضته على المجتمع ككل، لكن بدون جدوى، ثم عرفت مرحلة الاستقلال تغيرات اقتصادية وثقافية وسكانية أدت تدريجيا إلى بروز النمط الأسري النووي، الذي يعكس فى الحقيقة نموذجا متكاملا من القيم، والمعايير، والتصورات، والاتجاهات، والعلاقات، والأنماط السلوكية، وهذا التغيير قد مس

المناطق الحضرية بصفة خاصة، وإلا فإن النمط الأسري الممتد لا يزال سائدا في المناطق الريفية وموجود بنسب ضعيفة نوعا ما في المدن.

قائمة المراجع

- 1- مسعود طفطاف، المشكلات الاجتماعية، الناجمة عن الهجرة الخارجية، رسالة مقدمة لدائرة علم الاجتماع لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في علم الاجتماع، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، 1979-1980، ص 81.
- 2- سناء الخولي، الأسرة والحياة العائلية، القاهرة، دار المعرفة، 1978.
- 3- علي عبد الواحد وافي، الأسرة والمجتمع، مصر، دار النهضة للطباعة والنشر، ط1977.
- 4- زيدان عبد الباقي، الأسرة والطفولة، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1980.
- 5- السيد محمود بدوي، المجتمع والمشكلات الاجتماعية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1988.
- 6- محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، الاسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979.
- 7- مسعودة كسال، مشكلة الطلاق في المجتمع الجزائري، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1986.
- 8- رابع تري، أصول التربية والتعليم، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1990.
- 9- خيري خليل الجميل، الاتجاهات المعاصرة في دراسة الأسرة والطفولة، الاسكندرية، المكتب المجتمع الحديث، 1993.
- 10- محمد عطية الأبراشي، الطفولة صانعة المستقبل، القاهرة، مكتبة الأنجلو- مصرية، 1963.
- 11- محمد لبيب النجيجي، الأسس الاجتماعية للتربية، القاهرة، مكتبة الانجلو- مصرية، ط1971.
- 12- سيد رمضان، رعاية الأسرة، الاسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، بدون تاريخ.
- 13- ذكاء الحر، الطفل العربي وثقافة المجتمع، بيروت، دار الحدائة للطباعة والنشر، ط1، 1984.
- 15- محمد لبيب النجيجي، الأسس الاجتماعية للتربية، القاهرة، مكتبة الأنجلو- مصرية، ط1971.
- 16- سناء الخولي، التغير الاجتماعي والتحديث، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ط1993.
- 18- نبيل توفيق السمالوطي، علم اجتماع التنمية، الإسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1978.
- 15- Andrée Michel, sociologie de la famille et du mariage, France, presse universitaire, 2eme édition, 1978, p136 .
- 16- BOUTEFNOUCHET MUSTAPHA, la famille algérienne, Evolution et caractéristiques récentes, Alger.sned.1980.OP.CIT